التفسير البياني عند عائشة عبد الرحمٰن (بنت الشاطئ): مقاربة منهجية

الحسان شهيد

تقديم:

لقد نال الدرس القرآني عنايةً فائقةً منذ القرون الأولى لنزول الوحي، فتشعبت المناهج الدراسية بحسب التخصصات والاهتمامات العلمية، وتنوعت المسالك في البحث عن دلالات نصوصه الكريمة ومعانيها، حتى أضحى علم التفسير أشرف العلوم وأعلاها مرتبة، يقول الزمخشري: «إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق مسلكها؛ علم التفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم...»[1]، فكان لا بدَّ من الجمع بين كل العلوم لاقتحام مجال الدرس القرآني؛ لأن «كتاب اللّٰه تعالى لا يتفسر إلَّا بتصريف جميع العلوم فيه»[2].

1- الزمخشري، أبو القاسم جار اللّٰه محمود بن محمد. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دون مدينة النشر، الدار العلمية للطباعة والنشر، دون رقم الطبعة، ص15.

2- ابن عطية، عبد الحق بن غالب. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، 1428هـ/2007م، ص35.

باحث من المغرب.

وإن كان التهيّب قد داخل نفوس العلماء في كشف دلالات النص القرآني؛ فإن التاريخ العلمي قد سجل لنا عدداً من المصنفات التفسيرية لكتاب الله تعالى؛ لأن القضية الكبرى في كل التفاسير هي أنها لا تدعي بحال تقديم كلمة يمكن أن تقوم مقام الكلمة القرآنية في سياقها على وجه المماثلة والترداف، فهيهات لبشر أن يأتي بآية من مثل هذا القرآن[1].

وتُعدُّ عائشة عبد الرحمٰن «بنت الشاطئ» ـ حسب ما تحفظه لنا التراثيات الخطية ـ أول امرأة فسرت القرآن الكريم في دلالاته البيانية، نحاول في هذه الدراسة تقديم مقاربة منهجية لمشروعها التفسيري الموسوم بالتفسير البياني للقرآن الكريم.

أولاً: في دلالة البيان

البيان في اللغة هو الوضوح والظهور، ومنه بَانَ الشيْءُ بياناً إذا اتَّضَح وظهر. وقد ذكر العلماء «أنّ أوّل من دوّن مسائل علم البيان أبو عبيدة «مَعْمَرُ بن المثنَّى» في كتابه: «مجاز القرآن»، وتبعه «الجاحظ»، ثم «ابْنُ المعتزّ»، ثُمَّ «قُدَامَةُ بْنُ جعفر». ثُمَّ «أبو هِلَال العسكري»، ثم جاء الشيخ «عبد القاهر الجرجاني»، فأحكم أساسه، وأكمل بنيانه[2]، وقد نظر العلماء وأهل الاختصاص اللغوي قديماً إلى علم البيان بتقدير واعتبار كبيرين؛ لجلالة قدره وسمو غايته في تفهيم الكلام وفِقه معانيه، فحكى ابن رشيق القيرواني في «**عمدته**» أن البيان: «هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة؛ لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء. وقال: البيان: الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل، ولا يستحق اسم البيان[3].

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 9/2.

2ـ الميداني، عبد الرحمٰن بن حسن حَبَنَّكَة، **البلاغة العربية**، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/1996م، 126/2.

3ـ القيرواني، ابن رشيق، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، ط1، 2006، القاهرة، مصر، 210/1.

وأما الجاحظ في بيانه وتبيينه فقد جمع لمفهوم البيان كل الدلالات المشيرة إلى الطرق المستعملة في الفهم والإفهام فقال: «والبيان: اسم جامع لكل شيء كَشَف لك قناع المعنى، وهَتَكَ لك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، وإن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذاك هو البيان في ذلك الموضع»[1].

تُعدُّ عائشة عبد الرحمٰن «بنت الشاطئ» ـ حسب ما تحفظه لنا التراثيات الخطية ـ أول امرأة فسرت القرآن الكريم في دلالاته البيانية.

كما فضّل ابنُ الأثير البيانيَ عن النحوي واللغوي بفضيلة النظر الدلالي والمعنوي لما قال: «علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، ويُسأل صاحب هذا العلم عن أحوالها اللفظية والمعنوية، ويشترك هو والنحوي أو اللغوي في أن الثاني ينظر في دلالته على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة. أما صاحب البيان فإن له نظرةً فوق هذه النظرة؛ لأنه ينظر في فضيلة تلك الدلالة، التي هي دلالة خاصة[2].

ويقول في هذا السياق المؤيد بالله الطالبي في كتابه **الطراز**: «أما بعد، فإن العلوم الأدبية، وإن عظم في الشرف شأنها، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها، خلا أن علم البيان هو أمير جنودها، وواسطة عقودها، فلكها المحيط الدائر، وقمرها السامر الزاهر، وهو أبو عذرتها، وإنسان مقلتها، وشعلة مصباحها، وياقوتة وشاحها، ولولاه لم تَرَ لساناً

1ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو، **البيان والتبيين**، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، لبنان، ص56/1.

2ـ ابن الأثير ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة، 21/1.

يحوك الوشي من حلل الكلام. وينفث السحر مفتر الأكمام. وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز، والمستولب على حقائق علم المجاز[1].

ثانياً: البيان والقرآن

إن ربط دلالة البيان بالإنسان تحيل على العلامات الفارقة بينه وبين باقي المخلوقات الحسية، والمقصود بذلك كل ما يعبر عنه بالفهم للمعاني والإدراك للأشياء والتمييز بين الحالات، وهو ما يستشف من قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: 3، 4] حيث قال القرطبي في معنى ذلك: «و(البيان) على هذا: الكلام والفهم، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال السدي: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به»[2]. وقد وسع الطبري من قبله ذلك المفهوم اللغوي حيث قال: «معنى ذلك: أن الله علَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه؛ لأن الله جلّ ثناؤه لم يخصص ـ بخبره ذلك ـ أنه علَّمه من البيان بعضاً دون بعض، بل عمّ فقال: علَّمه البيان، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه»[3].

كما تمَّ ربط البيان بالأحكام الشرعية في علاقاتها بالقواعد الأصولية، كما ذكر الشافعي في رسالته حين قال: «الدليلُ على أن البيان في الفرائض المنصوصة في كتاب الله من أحد هذه الوجوه. منها: ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره. ومنها: ما أتى على غاية البيان في فرضه وافترض طاعة رسوله، فبيَّن رسول الله عن الله كيف فرْضُهُ؟ وعلى من فرْضُهُ؟ ومتى يزول بعضه

1 ـ المؤيد بالله الطالبي، يحيى بن حمزة، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، الناشر: المكتبة العنصرية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، 1423هـ، 5/1.

2 ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد شمس الدين، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيّش، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384هـ/1964م، 153/17.

3 ـ الطبري، محمد أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م، 8/22.

وَيَثْبُتُ وَيَجِبُ؟، ومنها: ما بينه عن سُــنَّة نبيه بلا نص كتاب. وكل شيء منها بيانٌ في كتاب الله»[1].

لكنه يرى في الوقت ذاته أن البيان الأصولي من وجوه متعددة بحسب القواعد والمسالك، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويَعْلَمُ مَنْ فَهِمَ (هذا الكتاب) أنَّ البيان يكون من وجوه، لا مِن وَجْهٍ واحد، يَجْمَعُها أنها عند أهل العلم بَيِّنَةٌ ومُشْتَبِهَةُ البَيَانِ، وعند مَن يَقْصُرُ عِلمُه مُخْتلفة البَيَانِ»[2].

لكن المنعطف الفاصل بين البيان بمفهومه العام الذي حدده الجاحظ آنفاً والمفهوم الخاص ـ الذي ربطه نفسه بالقرآن حيث قال: «وكلما كانت الدلالــة أوضح وأفصــح، وكانت الإشــارة أبْين وأنْور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي ســمعْت الله عَزَّوَجَلَّ يمدحه، ويدعــو إليه ويحث عليــه. بذلك نطق القــرآن، وبذلك تفاخــرت العــرب، وتفاضلت أصنــاف الأعجام»[3] ـ هو ذلك الاســتئثار الذي انفرد بــه الاختصــاص القرآني خــلال مرحلة متعينة من نزول الوحي، فهــذا ابن جزي يوثق وثاقة كلية بين البيان والقرآن فيقول: «وأما علم البيان فهو علم شريف، تظهر به فصاحة القرآن»[4]. وأما النسفي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: 64] فقد جعل المعرفة البيانية شرطاً أكيداً في فتح مغاليق النصوص

> **قال الطبري: إن الله علم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه، من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك.**

1ـ الشــافعي، محمد بن إدريس، **الرســالة**، المحقق: أحمد شاكر النــاشــر: مكتبه الحلبي، مصر الطبعة: الأولى، 1358هـ/1940م، 33/1.

2ـ الرسالة 145/1.

3ـ الجاحظ، أبــو عثمان عمرو، **البيان والتبيين**، تحقيق درويش جويــدي، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، لبنان، ص 56/1.

4ـ ابن جزي، أبو القاسم، محمد، **التســهيل لعلوم التنزيل**، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت، الطبعة الأولى ـ 1416هـ، 18/1.

القرآنية «ومــن لم ينظـر في علم البيان يتحير فـي تـأويل أمثال هـذه الآية»[1].

وفي هذا السـياق يربط ابن خلدون البيان بالدرس القرآني، فيقول في مقدمته: «إن علم البيان حادث في الملة، ومعناه أن تنظيم البحث في الأدب والكلام ـ في عناصره وما يسـمو به وما ينحـط ـ كان جهداً جديداً لا عهد للعرب به في جاهليتهم ولا في العصر الإسـلامي؛ لأن البيان كان من العلوم التي تولى غرسها المسلمون في سبيل فهم كتابهم والدفاع عنه، وكان نماؤه بعد ذلك، وتشبعت مباحثه بتأثير الدين»[2].

إن هـذا التراكم الأدبي والعلمـي البياني على مـر التاريخ مع ضعف اللسـان العربي لدى متكلميه من المسلمين خلال المراحل المتأخرة؛ جعل البحث البياني مسألة ملحة في فِقه القرآن الكريم وإعادة الاعتبار له في ظل الاهتمام المتزايد بالشعر العربي دون غيره من مصادر ومناهل اللغة، وذلك ما دفع رائدة التفسير البياني المعاصر الدكتورة عائشة بنت الشاطئ إلى هذا السبيل. تقول رحمها الله: «وقد شغلتني قضية الإعجاز البياني دون أن أتجه إليه قصداً، فأثناء انشغالي بالتفسير البياني والدراسات القرآنية تجلى لي من أسـراره الباهرة مـا لفتني إلى موقف العـرب من المعجزة القرآنية في عصـر المبعث، ووجهني إلى محاولة منهجية في فهم عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، وقد تحداهم والعربية لغته ولغتهم والبيان طوع ألسنتهم، وهم بلا ريب قد أدركوا من أسرار إعجاز البيان ما أيأسهم من محاولة الإتيان بلفظ يقوم مقام اللفظ فيه، أو أن يأتوا بآية على غير الوجه الذي جاءت به في البيان المعجز»[3].

1ـ النسـفي، أبو البركات حافظ الدين، **مدارك التنزيل وحقائـق التأويل**، حققه وخرج أحاديثه: يوسـف علي بديوي، راجعه وقدم لـه: محيي الدين ديب مسـتو، الناشـر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ/1998م، 1/459.

2ـ ابن خلدون، عبد الرحمٰن، **المقدمة**، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص 609.

3ـ عائشـة عبد الرحمٰـن، **الإعجاز البياني للقرآن ومسـائل ابن الأزرق**، الناشـر: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص 10.

ثالثاً: مقاصد التفسير البياني

لكل عمل علمي منهجي مقاصد وغايات تميزه عن غيره من الأعمال، ومنهجية التفسير البياني كما وضعت أسسها الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن لم تحدد لها مقاصد محددة ومحفوظة، إنما من خلال تتبع الأدبيات الدائرة حول المشروع البياني للكاتبة من تفسير وإعجاز وغيرهما يمكن استنتاج المقاصد الكلية الآتية:

1 ـ العناية بالإعجاز القرآني

يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن علم البيان حادث في الملة، ومعناه أن تنظيم البحث في الأدب والكلام ـ في عناصره وما يسمو به وما ينحط ـ كان جهداً جديداً لا عهد للعرب به في جاهليتهم ولا في العصر الإسلامي.

أرادت صاحبة المشروع البياني في القرآن الكريم أن تعيد للبيان القرآني جماليته وبريقه، الذي غيبته الاهتمامات اللغوية واللسانية المتخصصة في النصوص الشعرية والأدبية خلال العصر الجاهلي وما بعده، ورغم ما يشهده النص القرآني من خلود وإعجاز وطلاوة؛ فإن أهل الدرس الأدبي بالجامعات العربية المعاصرة لم يولوه العناية الفائقة والدراسة الكافية، وهو ما أشارت إليه بقولها:

«وشغلنا نحن أصحاب الدرس الأدبي، أو شُغلت الجمهرة منا، بالمعلقات والنقائض والمفضليات، ومشهور الخمريات والحماسيات والمراثي والمدائح والغزليات، ومأثور الرسائل والأمالي والمقامات، شغلنا بهذا ومثله عن «القرآن الكريم» الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء»[1].

1ـ عائشة عبد الرحمٰن، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، الناشر: دار المعارف، الطبعة السابعة، 13/1.

إن الوقوف عند الدلالات البيانيــة الإعجازية في القرآن الكريم من أهم المقاصد الكبرى لظهــور فن البيان في علاقته بالنصّ القرآني عبر التاريخ، فهذا ابن خلدون يحدثنا «أنّ ثمــرة هذا الفنّ إنّما هي في فهم الإعجاز مــن القرآن؛ لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالــة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائهــا وجودة رصفها وتركيبها، وهــذا هو الإعجاز الّذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنّما يدرك بعض الشّيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللّســان العربيّ وحصــول ملكته فيدرك من إعجــازه على قدر ذوقه»[1].

ثم إن جوانب الإعجاز في القرآن الكريم لا تدرك إلا بالتشرب من علم مناسب هو علم البيان، يقول البقاعي في درره: «الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكر في علم البيان، وهو كما اختاره جماعة في تعريفه ما يحترز به عن الخطأ فــي تأدية المعنى وعــن تعقيده، وتعرف به وجوه تحســين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال؛ لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظــه وإلا لكانت قبل نزولــه معجزة، ولا مجرد تأليفهــا وإلا لكان كل تأليف معجزاً»[2].

2 ـ إدراك مقاصد القرآن

إن الــدرس البياني فــي فهم القــرآن الكريم من أهــم مداخل فِقه المقاصد القرآنية خاصة والشرعية عامة؛ لأن اللسان العربي الذي أنزل به النص القرآني لا يتم فهمه وإدراك مراميه ومعانيه دون الإعمال البياني والاشــتغال بالدرس البياني، من هنــا كانت الحاجة ملحة لدى عائشــة عبد الرحمٰن إلى تلك المنهجية لاستيفاء شروط الفهم البالغ تقول رحمها الله: «إن الدراســة المنهجيــة لنص القرآن الكريم يجــب أن تتقدم كل

1ـ ابن خلدون، عبد الرحمٰن، **المقدمة**، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص611.

2ـ البقاعــي، إبراهيــم بن عمر، **نظم الدرر في تناســب الآيات والســور**، الناشــر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت. 183/1.

دراسة أخرى فيه، لا لأنه كتاب العربية الأكبر فحسب؛ ولكن لأن الذين يعنون بدراسة نواح أخرى فيه، والتماس مقاصد بعينها منه؛ لا يستطيعون أن يبلغوا من تلك المقاصد شيئاً دون أن يفقهوا أسلوبه، ويهتدوا إلى أسراره البيانية التي تعين على إدراك دلالاته»[1]. ولا يقتصر هذا الشرط المنهجي على المختصين في دراسة القرآن من حيث جوانبه الفقهية أو قضاياه الاجتماعية أو أبعاده اللغوية، بل إن كل مقتحم لعقبات الفهم والإدراك والتفسير للنصّ القرآني وفهم مقاصده لا غنى له عن فقه البيان القرآني»، فسواء أكان الدارس يريد أن يستخرج من القرآن أحكامه الفقهية، أو يستبين موقفه من القضايا الاجتماعية أو اللغوية أو البلاغية، أم كان يريد أن يفسر آيات الذكر الحكيم على النحو الذي ألفناه في كتب التفسير، فهو مطالب بأن يتهيأ أولاً لما يريد، ويعد لمقصده عدته: من فهم مفردات القرآن وأساليبه، فهماً يقوم على الدرس المنهجي الاستقرائي ولمح أسراره في التعبير»[2].

يحتاج علم التفسير بكل مناهجه وصوره إلى علم البيان لاستثماره في الكشف عن الدلالات العربية العميقة التي يكتنزها النصّ القرآني، سبيلاً إلى استنباط الأحكام الشرعية التي تفيد المكلفين في تمثلاتهم العملية.

3 ـ تطوير علم التفسير

يحتاج علم التفسير بكل مناهجه وصوره إلى علم البيان لاستثماره في الكشف عن الدلالات العربية العميقة التي يكتنزها النصّ القرآني، سبيلاً إلى استنباط الأحكام الشرعية التي تفيد المكلفين في تمثلاتهم العملية، لكن المدارس التفسيرية للدرس القرآني لم توظف المنهج البياني أحسن توظيف، إلا ما كان من محاولات نادرة أشهرها محاولة جار الله الزّمخشريّ في كشافه، يقول ابن خلدون في المقدمة: «وأحوج ما يكون إلى هذا الفنّ المفسّرون، وأكثر تفاسير المتقدّمين غفل عنه، حتّى ظهر جار الله الزّمخشريّ،

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 13/1.

2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 15/1.

ووضع كتابه في التّفسير، وتتبّع آي القرآن بأحكام هذا الفنّ بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التّفاسير»[1].

ولما بدا أنّ علم التفسير في جانبه البياني لم ينضج بالصورة المطلوبة التي تتسامى والنص القرآني في سموه البياني وارتقائه الدلالي، أرادت عائشة عبد الرحمٰن أن تفسح لنفسها المجال كما تقول لاقتحام هذا العمل تطويراً له وتصحيحاً ونقداً لما سبقه، تقول: «ولكن التفسير ظلَّ ـ باعترافهم ـ من علوم العربية التي لم تنضج ولم تحترق، وهذا الاعتراف يفسح لي العذر حين أتقدّم إلى هذا الميدان الجليل في حدود جهدي وطاقتي واختصاصي، كما يشفع لي حين أضطر أحياناً إلى رفض بعض أقوال لهم وتأويلات واتجاهات، قد أراها ـ والله أعلم ـ بعيدة عن روح العربية الأصلية، مجافية ـ نصّاً وروحاً ـ لبيان القرآن المحكم»[2].

بالإضافة إلى ذلك لم تتحمل الدكتورة عائشة اقتصار الأساتذة والباحثين في الدراسات الإسلامية والعربية على دواوين الشعر وغيره دون الاهتمام بالدرس القرآني والتفسير في عرض البيان اللغوي فيه، مما دفعها إلى هذا القصد بعملها، تقول: «ونحن في الجامعة نترك هذا الكنز الغالي لدرس التفسير، وقَلَّ فينا مَنْ حاول أن ينقله إلى مجال دراسات العربية التي قصرناها على دواوين الشعر ونثر أمراء البيان. وكان المنهج المتبع في درس التفسير ـ إلى نحو ربع قرن من الزمان ـ تقليديّاً أثريّاً، لا يتجاوز فهم النصّ القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم»[3].

رابعاً: أُسس التفسير البياني

تتنوع الأُسس العلمية التي يقوم عليها التفسير البياني عند الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن، وسوف أقتصر على الأهم منها وعلى ما يتناسب ومقام الدراسة:

1ـ ابن خلدون، عبد الرحمٰن، **المقدمة**، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص611.
2ـ **التفسير البياني للقرآن الكريم**، 17/1.
3ـ **التفسير البياني للقرآن الكريم**، 13/2.

1 ـ الأساس الاصطلاحي

يعرف الإنتاج العلمي للدكتورة عائشة عبد الرحمٰن ثراءً اصطلاحيّاً وتنوعاً استعماليّاً من داخل المجال التداولي التفسيري في جانبه البياني، فنجدها تتنقل بين تنوعات المصطلح اللغوي، والمصطلح الديني، والمصطلح الإسلامي، والمصطلح النحوي، والمصطلح البلاغي، والمصطلح الشرعي، والمصطلح البديعي... وكلها اصطلاحات لها صلة بالحقل الدلالي البياني. وقد وظفت كل ذلك الغنى اللغوي في أوجه البيان والاستدلالات اللغوية للكلمات والألفاظ القرآنية، لاستكمال المعاني المركبة للدلالات النصية المعتبرة في الآيات. كما شكل البيان الاصطلاحي أحد أهم الأُسس الكبرى في البيان التفسيري عند الدكتورة؛ على أساس مركزيته في منهجية التفسير البياني القائم على تتبع واستقراء معانيه في مظانه من الآيات القرآنية كما قالت: «والمنهج المتبع هنا، هو الذي خضعت له فيما قدمت من قبل، بضوابطه الصارمة التي تأخذنا باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده، للوصول إلى دلالته، وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، ثم سياقها العام في المصحف كله، التماساً لسرها البياني. وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير في خدمة هذا المنهج، فإننا نحاول أن ندرك حسن العربية للألفاظ التي نتدبرها من النصّ القرآني، عن طريق لمح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها لكل لفظ، وواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته. ثم يكون للنصّ بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به، والقول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية لا يعني تخطئة سائر الدلالات المعجمية، كما أن إيثار القرآن لصيغة بعينها لا يعني تخطئة سواها من الصيغ في فصحى العربية. بل يعني

لم تتحمل الدكتورة عائشة اقتصار الأساتذة والباحثين في الدراسات الإسلامية والعربية على دواوين الشعر وغيره دون الاهتمام بالدرس القرآني والتفسير في عرض البيان اللغوي فيه.

أننا نقدر أن لهذا القرآن معجمه الخاص ببيانه المعجز، فنقول: إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية، ثم لا يعترض علينا بأن العربية تعرف صيغاً ودلالات أخرى للكلمة»[1].

مثال أول: قولها في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: 7]؛ حيث عند مصطلح الضلال بالبيان والتفسير فقالت: وقد سبق استقراء الاستعمال القرآني للهدى والضلال في تفسير آية الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7] وأصلهما في الضلال عن الطريق أو الاهتداء إليه، حسيّاً ومعنويّاً، ثم نُقِلَا إلى الدلالة الإسلامية على الكفر والإيمان، وهذا هو معناهما الظاهر في آية القلم، مع ارتباطهما بأصل المعنى الأول، بلفظ السبيل، ترشيحاً للاستعارة على المصطلح البلاغي»[2].

مثال ثانٍ: ومن ذلك أيضاً تفسيرها لقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17]، حيث ميّزت في معنى ودلالة مصطلح الجنة بين المراحل التي مرَّ بها من مجال تداولي خاص إلى مجال تداولي مغاير، تقول المرحومة: «والجنة في الآية على معناها الأول قبل أن تأخذ دلالتها الإسلامية على دار النعيم في الآخرة. وترجع دلالة المادة في الأصل اللغوي إلى معنى الخفاء، يبدو بوضوح في الجنين مختفياً في رحم أمه، والجنون خفاء العقل، والجن جنس خفي من المخلوقات، نقيض الإنس. وبملحظ الستر في الخفاء قيل: جَنَّ عليه الليل. والمِجَنُّ: ما يتخذ درعاً ساترة للوقاية. وقيل للأرض المغطاة بالشجر والزرع: جنة، ثم نقلت الجنة إلى المصطلح الإسلامي في جنة الآخرة، وهو الاستعمال الغالب للفظ جنة وجنات في القرآن الكريم»[3]. ويبدو أن الثراء المعرفي لدى الدكتورة ومعرفتها بالخصائص الطارئة على البيان الاصطلاحي جعلها تقلب معاني ودلالات

1- التفسير البياني للقرآن الكريم، 7/2، 8.
2- التفسير البياني للقرآن الكريم، 54/2.
3- التفسير البياني للقرآن الكريم، 62/2.

مصطلح الجنة لتستقر على بيان اصطلاحي لطيف يميز بين الجنة في الأرض والجنة في السماء.

مثال ثالث: ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في بيانها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: 12، 13] حيث تقول: «والآخرة والأولى في الاستعمال اللغوي: النهاية والبداية، أو المصير والمبتدأ، ملحوظاً فيهما الإتيان في الآخر وفي الأول. وتأتي الآخرة والأولى في المصطلح الديني بمعنى الحياتين الآخرة والدنيا. والأول والآخر من أسماء الله تعالى الحسنى[1].

إنَّ الثراء المعرفي لبنت الشاطئ ومعرفتها بالخصائص الطارئة على البيان الاصطلاحي جعلها تقلب معاني ودلالات مصطلح الجنة لتستقر على بيان اصطلاحي لطيف يميز بين الجنة في الأرض والجنة في السماء.

هذه أمثلة على أساس الاصطلاح في البيان ـ وغيرها كثير ـ كانت مستند عائشة بنت الشاطئ في بيان وتفسير باقي الآيات القرآنية.

2 ـ الأساس الموضوعي

شكل البحث الموضوعي للمسألة الواحدة أحد الأُسس الكبرى التي اعتمد عليها في التفسير البياني، وهو منهج جديد بالنظر إلى تواتر العمل بالمنهج التقليدي المستند إلى تفسير القرآن بداية من سورة الفاتحة وختاماً بسورة الناس، ويتداخل هذا الأساس مع الأساس السابق أي الاصطلاحي؛ لأنه مفتاح الموضوعات المتعينة في البحث، فكان من الضروري تتبع ألفاظ الموضوع الواحد في كل آيات القرآن ليكتمل المعنى وتتم الدلالة، وهو منهج أستاذ الدكتورة الذي بقيت وفية له، حيث تقول: «والأصل في منهج هذا التفسير ـ كما تلقيته عن أستاذي ـ هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن منه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك... وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة في تفسير القرآن

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 111/2.

سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية[1].

3 ـ الأساس الأسلوبي

من الأُسس البيانية الكبرى التي قام عليها منهج التفسير البياني لدى بنت الشاطئ النظر الأسلوبي، وهنا تبرز معايشتها وتجربتها الخاصة مع القرآن الكريم والتشبع بمعانيه ودلالاته؛ لأننا كثيراً ما نجدها تعبّر عن تذوقها لطلاوة القرآن الكريم وإعجابها ببعض الظواهر الأسلوبية الساحرة، وسوف أسرد أمثلة محدودة يمكن قياس نظيراتها عليها في مشروعها التفسيري.

الأول: أسلوب حذف الفاعل

ولفرط إعجاب الدكتورة بهذه الظاهرة وتواترها في القرآن الكريم تعجب لتفريط المفسرين فيها وتندهش من عدم التفاتهم إليها، على الرغم من وضوحها حسب قولها: «وعجيب حقّاً أن تطّرد هذه الظاهرة الأسلوبية في موقف واحد، ثم لا تلفت البلاغيين والمفسرين مع وضوحها». والظاهرة قد مرَّ عليها البلاغيون دون التركيز على جماليتها البيانية، فهم يقولون في حذف الفاعل: إنه يُحذف للعلم أو الجهل به، أو الخوف منه أو عليه. ونعرض هذه الوجوه على البيان القرآني، فيأبى أن يكون حذف الفاعل ـ سبحانه ـ لأحداث القيامة، للخوف عليه أو الجهل به. ثم يشهد الاستقراء أن القرآن لم يحذف الفاعل في مواضع العلم به يقيناً، مثل:

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 284].

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212].

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 18/1.

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: 258].

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء: 1].

فما سر ظاهرة الاستغناء عن ذكر الفاعل في أحداث يوم القيامة؟

وتجيب الدكتورة عن هذا السؤال البياني من حيث الأسلوب وتقول: «يهدينا البيان القرآني إلى أن أساليب البناء للمجهول، والمطاوعة، والإسناد المجازي، تلتقي جميعاً في الاستغناء عن ذكر الفاعل، وإن كان لكل أسلوب منها ملحظه البياني الخاص، يجلوه استقراء مواضعه في الكتاب المحكم.

تقول بنت الشاطئ: يهدينا البيان القرآني إلى أن أساليب البناء للمجهول، والمطاوعة، والإسناد المجازي، تلتقي جميعاً في الاستغناء عن ذكر الفاعل، وإن كان لكل أسلوب منها ملحظه البياني الخاص.

اطراد هذه الظاهرة في موقف البعث والقيامة ينبه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة وإجراءات الإعراب الشكلية؛ فبناء الفاعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحَدث، بِصَرْفِ النظرِ عن مُحدِثه.

والمطاوعة: فيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدَثُ تلقائيّاً أو على وجه التسخير، وكأنه ليس في حاجة إلى فاعل...

والإسناد المجازي: يعطى المسنَد إليه فاعليةً محققة يستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصلي... والله أعلم[1].

وقد تحدثت عن هذه الظاهرة الأسلوبية في مناسبة أخرى مذكرةً بأهميتها وضعف العناية بها لدى الباحثين والمهتمين جمعاً وبحثاً ودراسة، وهي تعالج مسألة الأساليب وسرّ التعبير، وخصوصاً في مبحث الاستغناء عن الفاعل، فقالت: «كما تدرس في علم البيان إسنادَ الفعل إلى غير فاعله على سبيل المجاز، دون أن يحاول أحد الدارسين ـ فيما أعلم ـ أن يجمع هذا الشتاتَ المنتثر لظاهرة أسلوبية واحدة؛ لاستجلاء سرها الذي من أجله تستغني العربية عن الفاعل فتسنده إلى غير فاعله، بالبناء للمجهول أو المطاوعة أو

1ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، 242/1.

الإسـناد المجازي، وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستغناء عن الفاعل في البيان القرآني في موقف القيامة»[1].

الثاني: أسلوب همزة الاستفهام في الخطاب

ترى عائشة عبد الرحمن أن أسلوب اقتران الأفعال ـ خصوصاً في الخطاب القرآني ـ بهمزة الاسـتفهام لم ينل حظه من البيان اللغـوي والدلالي لدى المفسـرين، بالقدر الذي ناله في البيان النحوي والصرفي الصِّرف، وهذا السـبيل قد فوت على المتذوق للأسـاليب القرآنية أسـلوباً في غاية الدقة والبيان؛ لأنه تنبيه إلى صرف الذهن والبصيرة إلى وجوه المعاني الأسلوبية عوض العناية والانشـغال بالبحث عن المفعول الثاني، تقول عائشة في بيان قوله تعالى من سورة الواقعة: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ ومعها آيات: يونس 59، الشـعراء 75، فاطر 40، الزمر 38، النجم 19، الأحقاف 4.

هي إذن ظاهرة أسـلوبية كان ينبغي أن تلفت إلى وجه في البيان العربي يسـتغني عن المفعـول الثانـي لـ«رأى» حين تقتـرن بهمزة الاسـتفهام في الخطاب، فلا تنشغل بالتماس هذا المفعول الثاني خضوعاً للصنعة النحوية، بل أولى منه أن نتدبر سـر هذه الظاهرة الأسـلوبية التي لا تتخلف في آيات العلق:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، فلفتت إلى ما هـو جدير بالرؤية والبصر والتدبر، وما يمكن الاسـتغناء عن تتبعه، مما انشغل به النحاة، واختلفوا فيه من التماس المفعول الثاني والاهتمام بتقديره. والأمر كذلك في جواب شرط ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾»[2].

1ـ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، 243/1.

2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 29/2.

4 ـ البيان السياقي

لا غنى لمقتحم الدلالات القرآنية وبيان معانيها الصحيحة عن استحضار المعطى السياقي ومقاماته المختلفة؛ لأنه جزء جوهري من لواحق الكلام وأبعاد النص، وإنْ أَسَّس علماءُ التفسير في جوانب أسباب النزول وعلماء الأصول في دلالات العموم والخصوص لقاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)؛ فإن لمقام السياق مركزيته في فهم النص حق الفهم وإدراك مقاصده.

لا غنى لمقتحم الدلالات القرآنية وبيان معانيها الصحيحة عن استحضار المعطى السياقي ومقاماته المختلفة؛ لأنه جزء جوهري من لواحق الكلام وأبعاد النص.

وقد جعلت الدكتورة مقام السياق أحد تلك الأُسس الكبرى في تفسيرها البياني لاستكمال الفهم، وقد لا تخطئ هذا الملحظ بصيرة قارئ إنتاجاتها العلمية في هذا المجال، بل كثيراً ما نبهت إليه في مناسبات عدة من جزئي تفسيرها، وأسُوق لذلك الأمثلة الآتية:

الأول: تقول في بيانها السياقي لمعنى التحدث في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]: «وحمل التحدث هنا على الشكر إذا سمح به الاستعمال اللغوي؛ فإن السياق لا يعين عليه، وإنما التحدث هنا هو صريح ما تعلق به مما يتصل بمهمة الرسول التي اصطُفي لها، وهو أن يبلغ رسالة ربه. ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا ـ مهما يكن من دلالاتها المعجمية اللغوية ـ هي الرسالة، أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل»[1].

الثاني: حين فسرت معنى الصدر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1] قالت: «وليس شيء من هذا كله بالذي يجنح إلى معنى مادي كشق الصدر الذي هو جارحة، ولا مجال معه، لتزيد لا يحتمله صريح السياق، مما أفاض المفسرون في ذكره من علوم وحكمة...، وهذه آيات القرآن جميعاً في

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 54/1.

الصدور، لا تأذن لنا في مثل هذا التزيد، وهي في سياق الإيمان والهدى ونور الله والشفاء، أو الضيق والحرج والعسر والطمس والضلال والغل...»[1].

الثالث: وهو ما ذكرته في معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشرح: 7] قالت: «والآية لم تحدد ممَّ يكون هذا الفراغ وفيم يكون النصب، اكتفاء بدلالة السياق، وجرياً على مألوف البيان القرآني في السكوت عن التحديد في مقام الإطلاق؛ لكن المفسرين ـ على عادتهم ـ أبوا إلا أن يحددوا متعلق الفراغ والنصب، وقد جاؤوا بأقوال منها:

- إذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك في الدعاء وقضاء حاجاتك.
- إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك.
- إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب، أي فَصَلِّ[2].

الرابع: وقالت أيضاً في بيان قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: 1]: «وقرأ الجمهور ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ بكسر الزاي وهي قراءة الأئمة السبعة، وفيها قراءة بفتحها، والفرق بينهما أن المكسور مصدر، والمفتوح اسم، وليس في الأبنية ـ كما قالوا ـ فعلال بالفتح إلا في المضاعف. والمصدرية أولى بالمقام، لما فيها من تأكيد يلائم السياق. ويؤيده تعين المصدرية في الآية الأخرى التي استعمل فيها القرآن هذه الصيغة، وهي آية [الأحزاب 11]: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾»[3].

5 ـ البيان المعنوي

يحتل البيان المعنوي مساحة واسعة من كتاب التفسير البياني، وهذا أمر جد طبيعي بالنظر إلى المنهجية البيانية المعتمدة، ذات الصلة بجانب المعاني، والمقصود بالبيان المعنوي هنا هو صرف المعنى الحسي المتبادر

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 61/1.
2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 74/1.
3ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 83/1.

إلى الدلالة المعنوية؛ لاكتمال الفهم السياقي المناسب، وأعرضُ هنا أمثلة على ذلك:

مثال أول: تقول في بيان قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: 7]: «أصل الضلال في الاستعمال اللغوي من فقدان الطريق؛ أرض مَضَلَّة، يضل فيها، والضَّلَّةُ: الحيرة، ونقيض الضلال: الهدى وقد استعملته العربية حسيّاً في الصخرة الناتئة في الماء يؤمن بها العثار، وفي وجه النهار، يكشف معالم الطريق فيؤمن الضلال. ثم جاء الاستعمال المعنوي للضلال والهدى، ملحوظاً فيهما الأصل الحسي، والاستعمال في المصطلح الديني للضلال والهدى بمعنى الكفر والإيمان، وقوي هذا الاستعمال الاصطلاحي حتى كاد يكون هو المتبادر، عند الإطلاق»[1].

القرآن الكريم في قَسَمِهِ بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس، وإذا يغشى، وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة.

مثال ثاني: وفي تفسيرها لواو القسم الكثيرة الورود في القرآن الكريم، تقول في بيانها لقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 1، 2]: «فالقسم بالواو ـ في مثل ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ـ غالباً أسلوب بلاغي لبيان المعاني بالمدركات الحسية. وما يلمح فيه من الإعظام إنما يقصد به إلى قوة اللفت... فالقرآن الكريم في قَسَمِهِ بالصبح إذا أسفر، وإذا تنفس، والنهار إذا تجلى، والليل إذا عسعس، وإذا يغشى، وإذا أدبر، يجلو معاني من الهدى والحق، أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة. وهذا البيان للمعنوي بالحسي، هو الذي يمكن أن نعرضه على أقسام القرآن بالواو، فتقبلها دون تكلف أو قسر في التأويل»[2].

مثال ثالث: والأمر نفسه أيضاً في بيانها لقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: 10]، حيث تقول: «والأصل اللغوي للهدى أنه الصخرة الناتئة في الماء يؤمن بها من العثار، ووجه النهار يعرف السائر فيه طريقه فلا يضل. ثم

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 44/1.

2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 26/1.

استعمل في هوادي الإبل؛ أي المتقدمة منها، ومنه الهادى؛ أي الدليل الذي يتقدم القوم ويهديهم الطريق، واستعمل بعد هذا مجازيّاً في الهداية ضد الضلال، وهو أكثر المعاني وروداً في القرآن كما استعمل ـ في الجو الديني ـ في التوفيق والإلهام»[1].

خامساً: مسالك التفسير البياني

تنحصر مسالك التفسير البياني عند بنت الشاطئ في خطوات ثلاث، تبدأ بالتمهيد البياني وتمر عبر المتن البياني لتنهيه بالختم البياني، وهي المسالك التي سلكتها في كل السور القرآنية التي حاولت تفسيرها.

وسوف أعرض لهذه المسالك مستصحباً تلك الخطوات عبر مثال تطبيقي لها، باتخاذ سورة الضحى أنموذجاً لذلك.

1 ـ التمهيد البياني

يتضمن التمهيد المخصص لبيان سور القرآن الكريم في مشروع الدكتورة مقدمات تفسيرية كما عرفت لدى مناهج المفسرين المتقدمين، ويتعلق الأمر ببيان بعض مبادئ التفسير كتصنيف السورة مكية أو مدنية، والوقوف عند أهم الروايات في أسباب نزولها؛ لأن «العبرة ـ في كل حال ـ بعموم اللفظ المفهوم من صريح نصها، إلا أن يتعين الاعتبار بخصوص السبب الذي نزلت فيه بدليل من صريح النص أو بقرينة بينة»[2]، غير أن ما يميّز منهجها هو العزوف عن البحث الخلافي في تلك المباحث مع التركيز على الراجح من الأقوال فيها.

ولبيان ذلك نأخذ مثال التمهيد البياني لسورة الضحى الذي جاء فيه: «السورة مكية بلا خلاف، والمشهور أنها الحادية عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد الفجر...

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 181/1.
2 ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 9/2.

والمفسرون مجمعون على أن سبب النزول هو إبطاء الوحي في أوائله على الرسول ﷺ حتى شق ذلك عليه، وقيل فيما قيل: ودَّع محمداً ربُّه وقلاه. ثم اختلفت أقوالهم ـ بعد هذا الإجماع ـ فيمن قالها، ففي رواية أنه رسول الله ﷺ، وقد شكا إلى زوجة السيدة خديجة رضي الله عنها انقطاع الوحي، وقال: «إن ربي ودعني وقلاني». فقالت: كلا؛ والذي بعثك بالحق، ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك، فنزلت الآيات: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 3].

تنحصر مسالك التفسير البياني عند بنت الشاطئ في خطوات ثلاث، تبدأ بالتمهيد البياني وتمر عبر المتن البياني لتنتهي بالختم البياني، وهي المسالك التي سلكتها في كل السور القرآنية التي حاولت تفسيرها.

وبعد ذكْر أهم الروايات في أسباب نزولها باقتضاب شديد تخلص قائلة: «ولا نقف عند ما اختلفوا فيه، فأسباب النزول لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص، وهي باعتراف الأقدمين أنفسهم لا تخلو من وهم، والاختلاف فيها قديم، وخلاصة ما انتهى إليه قولهم في أسباب النزول أنها ما نزلت إلا أيام وقوعه، وليس السبب فيها بمعنى السببية الحكمية العلية»[1].

2 ـ المتن البياني

يقوم اختيار عائشة عبد الرحمٰن في متنها البياني لكل سورة على الوقوف عند كل آية بمفردها متوقفة عند أسرارها البلاغية والبيانية الجليلة، وإذا اقتضى الحال الجمع بين آيتين أو ثلاث لا تتردد في ذلك، كلما وردت لديها شروط التناسق الجميل والغرض القاصد والضرورة الموضوعية التي تؤلف بينها، وهذا ما نلمسه جليّاً في تفصيل بيانها لسورة الضحى وفق الترتيب الآتي:

- ﴿وَالضُّحَىٰ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: 1، 2].
- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: 3].

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 23/1.

- ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: 4 - 8].
- ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: 9 - 11].

3 ـ الختم البياني

تجعل الدكتورة ختام بيانها التفسيري للسورة بالربط العضوي والموضوعي بين آياتها وخصوصا الأخيرة منها؛ لأن «وصل الآية بما قبلها هو الذي يطرد به النسق، وتتم وحدة السياق في السورة كلها»[1] كخلاصة لطيفة وبيانية للمعاني العميقة التي وفرتها الآيات في تناسقها وتآلفها، تقول في ختم سورة الضحى: «وقد نرى في ترتيب الآيات أنه تعالى نبه رسوله الكريم إلى أن إصلاح الجماعة يأتي في المنزلة الأولى من الاعتبار والتقدير، حين أجمل له في هذه الآيات الكريمة من مهمة رسالته: أن تدفع ذل الفاقدين، وقهر اليتامى، وحيرة السائلين، ففي الرسالة إصلاحٌ وهدايةٌ أُمِرَ النبي ﷺ بالتحدث بها وتبليغها ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النحل: 35][2].

سادساً: خصائص منهجية التفسير البياني

تتسم المنهجية البيانية في تفسير القرآن الكريم لدى الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن بخصائص يلحظها المتتبع لمشروعها في طريقة بياناتها للسور والآيات القرآنية، ويمكن حصر تلك الخصائص المنهجية في خصائص كلية جامعة.

أولها: الاستقراء القرآني

وثانيها: الربط القرآني

وثالثها: النموذج القرآني

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 76/1.
2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 54/1.

1 ـ الاستقراء القرآني:

المقصود بخاصية الاستقراء القرآني هو تتبع المفردات والألفاظ القرآنية في كل المواطن والمظان التي ذكرت فيها المفردة المتعينة؛ لاستنتاج المعنى الاصطلاحي الحقيقي كما أرادته النصوص القرآنية، مع بيان التغيرات التي طرأت على المصطلح ورصد التحولات التي مر بها، ومعرفة الشوائب المقحمة فيه، وتعبّر عن ذلك الدكتورة بقولها: «وقصدت بهذا الاتجاه إلى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة في التفسير، ومنهجنا الاستقرائي الذي يتناول النص القرآني في جوه الإعجازي، ويقدر حرمة كلماته بأدق ما عرفت مناهج النصوص من ضوابط، ويلتزم دائماً قول السلف الصالح: (القرآن يفسر بعضه بعضاً) ـ وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغاً ـ ويحرر مفهومه من العناصر الدخيلة والشوائب المقحمة على أصالته البيانية»[1].

الاستقراء القرآني هو تتبع المفردات والألفاظ القرآنية في كل المواطن والمظان التي ذكرت فيها المفردة المتعينة؛ لاستنتاج المعنى الاصطلاحي الحقيقي كما أرادته النصوص القرآنية.

ومن أمثلة استثمار منهج التتبع والاستقراء كما سلكته ما جاء في بيانها عن «آيات لجملٍ خبرية أو استفهامية منفية» **من** قولها: «وخلاصة ما هدى إليه الاستقراء لآياتها في البيان القرآني:

- أن الجمل الخبرية المنفية بـ«كان» لا يقترن خبرها بالباء. ووجه الاستغناء عن الباء أن النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد أصالةً، شأنه شأن أسلوب الجحد في الفعل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: 33].
- حيثما جاء الخبر منفيّاً بـ(ما) أو (ليس)، في الجمل الخبرية، واقترن الخبر بالباء، أفادت تقرير النفي بالجحد والإنكار. وتلزم الباء خبر (ما) و(ليس) في هذا السياق في البيان القرآني، ولا تتخلف إلا حين يكون المقام مستغنياً عن تقرير النفي، أو محتملاً لشك في الخبر.

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 18/1.

- في الجمل الاستفهامية يطرد اقتران خبر (ليس) بالباء، وبها ينتقض النفي، ويخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير باتّ، لا إلى أي وجه آخر من سائر الوجوه التي يعرفها علم البلاغة في خروج الاستفهام عن معناه الأول في أصل اللغة»[1].

2 ـ الربط القرآني:

أقصد بالربط القرآني ربط السياقات القرآنية والألفاظ القرآنية ومعانيها بعضها ببعض داخل النسق القرآني لاستكمال البيان، على أساس تفسير القرآن بعضه لبعض، تقول بنت الشاطئ: «وما أعرضه هنا ليس إلا محاولة في هذا التفسير البياني للمعجزة الخالدة، حرصت فيها ـ ما استطعت ـ على أن أخلص لفهم النصّ القرآني فهماً مستشفّاً روح العربية ومزاجها، مستأنسة في كل لفظ ـ بل في كل حركة ونبرة ـ بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتجر الخلاف، على هدى التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه، والتدبر الواعي لدلالة سياقه، والإصغاء المتأمل إلى إيحاء التعبير في البيان المعجز»[2].

وهو المنهج الذي أخذته من أستاذها أمين الخولي كما تقول: «والأصل في منهج هذا التفسير ـ كما تلقيته عن أستاذي ـ هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن منه، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك... وهو منهج يختلف والطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية»[3].

1ـ الإعجاز البياني للقرآن الكريم، 190/1.
2ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 17/1.
3ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 17/1.

3 ـ النموذج القرآني

معنى النموذج القرآني خاصية من خصائص النظر البياني القرآني، وهو الوضع الاعتباري المعياري للدرس القرآني في مقابل باقي الدروس الأدبية الشعرية والنثرية وقياسها عليه دون العكس، وهذا من شأنه حفظ الكلية القرآنية في البيان واللسان العربي القرآني، فيكون بذاك النصّ القرآني حاكماً لا محكوماً بقواعد النحويين والشعراء والأدباء، وذلك ما أثبتته الدكتورة في خصائص منهجيتها البيانية؛ «لأن الأصل أن تعرض قواعدهم وأحكامهم على البيان الأعلى، لا أن نعرض القرآن عليها ونخضعه لها. ويبدو أننا في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في قواعد النحو المدرسية وأحكام الصنعة البلاغية، في ضوء ما هدى ويهدي إليه التدبر الاستقرائي لكتاب العربية الأكبر في بيانه المعجز. كما ننتفع بجهود المفسرين حين نعرض أقوالهم على القرآن الكريم، فنقبل منها ما يحتمله نصّاً وسياقاً. ثم يكون إيرادنا للأقوال الأخرى التي لا يقبلها النصّ لفتاً إلى وجه الشطط فيها أو التكلف والاعتساف، وتنبيهاً إلى ما ينبغي من حذر وحرص؛ لاتقاء التورط في مقحم التأويلات المذهبية والمدسوسات الإسرائيلية»[1].

دشنت عائشة عبد الرحمٰن مشروعها للتفسير البياني في جزأين، لم تسنح لها المناسبة لإنهائه وإتمامه، والعهدة اليوم على الباحثين والعلماء المعاصرين لاستكماله، بالتفرغ لباقي أجزاء القرآن الكريم.

سابعاً: ختام القول في آفاق مشروع التفسير البياني

لقد دشنت عائشة عبد الرحمٰن مشروعها للتفسير البياني في جزأين، لم تسنح لها المناسبة لإنهائه وإتمامه، والعهدة اليوم على الباحثين والعلماء المعاصرين لاستكماله، بالتفرغ لباقي أجزاء القرآن الكريم، ونقترح لتطوير هذا مشروع تأسيس جامعة بحث تضم مجموعة من العلماء

1ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، 8/2.

والباحثين المختصين يعملون على اقتفاء منهج الدكتورة من حيث انتهت إلى آخر سورة من سور القرآن الكريم. بحيث يتفرغ لكل جزء من القرآن الكريم عالمان باحثان، على غرار جامعات البحث التي تكفلت بالموسوعات العلمية في القواعد الفقهية والأصولية والحديثية وغيرها. وإنه لعمل جليل نافع أرجو أن يتحقق على يد من وجدت له المناسبة وسنحت له الفرصة؛ وفاءً وتقديراً لجهود العالمة والأديبة المرحومة عائشة عبد الرحمٰن. وذلك أيضاً استحضاراً لمقولتها الافتتاحية للجزء الثاني من كتابها، حيث قالت: «ولست بحيث أجهل أن المدى الذي بلغته في محاولتي، محدود بطاقتي وجهدي. ويظل المجال مفتوحاً لعطاء أبنائي الصفوة، طلاب الدراسات القرآنية العليا الذين أحظى بصحبتهم في أعرق الجامعات الإسلامية، ويظل مفتوحاً بَعْدنا لجهد أجيال من العلماء تتعاقب على تدبر كتابنا الأكبر، فتدرك منه ما فاتنا أن ندركه، وتستشرف لآفاق قصرت محاولتنا عن مدادها، ويبقى من أسراره ما يفوت طاقة البشر: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 85] صدق الله العظيم[1].

1- التفسير البياني للقرآن الكريم، 9/2.